كتاب إلى نوّابنا عن رئيس متفرّد برؤياه maverick في جمهوريتنا المحاصرة

٢٢-٠٦-٢٠٢٣ | المصدر: "النهار"

نظراً لخيبة أملي المزمنة في الطريقة التي تُنتهك بها جمهوريتُنا المحاصرة بلا رحمة، كنت قد اتخذت منذ حين قراراً بالامتناع عن الكتابة عن أيّة معركة انتخابية يرعاها نظامنا السياسي المعطّل. إنما جدّية ترشيح شبلي ملاط في الانتخابات الرئاسية دفعتني إلى تعليق هذا القرار. وقد أصبح هذا الاحتمال الواعد عندي مصدراً للأمل الذي تشتدّ الحاجة للاطمئنان إليه، وليس فقط نزوةً خفيّة وطوباوية. الاحتمالات تحتاج ألّا تظلَّ احتمالات.

هو أمر مشجعٌ في مثل هذه الفواصل المظلمة من تاريخنا السائب أن يصبح مرشَّح بمؤهلاته غير العادية احتمالاً حقيقياً للرئاسة المعطّلة. طوال حياته المهنية المميزة، كان شبلي متفوقاً، بل مباركاً

بمجموعة من السمات الجذابة الداعمة لمساره، وهي سمات تنفر منها ثقافتنا التقليديّة. عذراً على لغة المغالاة المفرطة، عادة ما أتجنب مثل هذه المبالغات، لكنني متأثر بإمكانية ملموسة في رؤية رئيسِنا القادم صديقاً مقرّباً وزميلاً يتمتع بمثل هذه المؤهلات الاستثنائية.

بصفتي عالم اجتماع ومؤرخ اجتماعي، كرّست وقتاً طويلاً لاستكشاف بعض الخصال المميزة للعائلة اللبنانية وتفسيرها. أريدني صريحاً وواضحاً: آل الملاط حقاً استثنائيون.

بعد استعراضي السريع لنتاجهم وانجازات العائلة، من الواضح بأي معايير مقارنة أنها بعيدة عن المألوف. تستحقّ الأجيال الثلاثة من آل الملّاط أن يُنظر اليها برهبة وفخر: تامر (١٨٥٦-١٩١٤) ، شاعر وفيلسوف وقاضٍ. شبلي (١٨٧٥-١٩٦١)، شاعر وطني وعربي مشهور. وجدي (١٩١٩-٢٠١٠)، أديب، ونقيب المحامين، ووزير، وأول رئيس لمجلسنا الدستوري.

نظراً للظروف التي أكتب فيها المقال، لا بد أن أكون موجزاً. أعتزم التركيز على ثلاثة اعتبارات تمّ تجاهلها حتى الآن: التوضيح كيف يمكن لعائلة واسعة الباع والابداع أن تساعدنا على فهم شخصية شبلي الحفيد ودوافع ترشيحه إلى منصب الرئاسة. ثانياً، أبذل جهداً لكشف حسّ التجديد كما سمات أخرى دفعته إلى تجاوز المألوف لفهم ما أسميه "روح المغامرة أو الإبحار venturism" ، إدراكُها سهل في كتابات شبلي الاستثنائية حول **تجديد الفقه الإسلامي** (كامبريدج ١٩٩٣، دار النهار ١٩٩٨)، و**فلسفة اللاعنف** (أكسفورد ٢٠١٥) ، و**ديمقراطية نهاية القرن في أمريكا** (دار البدائع، ٢٠١٦).

وأختم باقتراح السبل التي تسمح بتناول عمل شبلي في سياق "القوة الناعمة soft power" ، بما تتناقض القوة الناعمة مع جميع أشكال العسكرة والعنف المتفشية في تاريخ لبناننا القريب.

وبما أنني أخاطب مجموعة واعية من أعضاء المجلس المنتخبين الـ ١٢٨، آمل أن يلقى ندائي هذا آذاناً صاغية. السمات الثلاث المميزة التي أرغب الإضاءة عليها تعكس جوهراً لا يمكنهم تخطّيه.

آل ملّاط العائلة موهوبة

يشكّل أفراد آل الملّاط، نظراً لتنوع وكثافة إبداعهم، دائماً مصدراً للإلهام والتقليد، وقد غرف شبلي بحرّية من ينبوعهم الوافر. ونشأ على تقليد عائلي نبيل آخر: تعاونٌ أدبيٌّ جَعَلَ الأشقاء مؤلِّفين مشترِكِين، وحوارٌ عابرٌ للأجيال. المنحة المشتركة، التي تنطوي في بعض الأحيان على العمل الشاق والمساعدة البحثية، تأتي عندهم بشكل طبيعي. إذا صادفْتَ منشوراً من منشورات آل الملّاط، ما عليك سوى الاطلاع على المقدمة لتجد إشارة إلى أشقاء آخرين وأفراد من العائلة شاركوا في الكتاب.

كان شبلي محظوظاً، بل محظياً، بأن يكون جزءاً من هذا الإرث الاستثنائي. منشورات آل الملّاط مليئة بالاحترام المتبادل والإعجاب. من الأمثلة ما يتبادر إلى الذهن من طلب والد شبلي المساعدة في جمع وتحرير وإعداد مجموعة من المقالات والأبحاث في مجلد (**مواقف**، دار النهار، ٢٠٠٥). كان المشروع شاقاً واستغرق وقتاً طويلاً، فاستخدم مساعدة شبلي، الأبرز أكاديمياً في الأسرة، بحكمة وإبداع. في مثال

آخر، تطوَّع وجدي، المحامي النشيط والواسع الأدب، لجمع وتحرير أعمال والده. وكرّر وجدي هذا العمل الفذ من خلال جمع وتحرير مجلّد شعر عمه تامر مع ابنه شبلي. هذا المشروع المشترك الناجح بين الأشقاء وعبر الأجيال نادر ومعبّر.

لدى بيت الملّاط أيضاً اهتمام شديد ومستنير بنوعية تعليم أولادهم. كان لشبلي بداية مبكرة، وربما مبكرة جداً مقارنة مع أترابه. نشأ في بيئة علمانية وغير تقليدية، مع احترام حماسي وولع خاص تجاه معلمين ومرشدين موهوبين وبارعين في عائلة واسعة القدرات والتنوع. يحقّ لثلاثة أو أربعة أجيال من آل الملاط أن يتباهوا بوجود عدد كبير من الكتّاب والفلاسفة والفقهاء، وحتى الفنانين من بينهم. هذه ليست ميزة اعتيادية، وقد حظي شبلي بالغرف من تنوع الولاءات الأساسية والمشارب الثقافية فيها.

أذكر هنا مناسبة وثيقة الصلة بالموضوع. لدي في العائلة الأقرب مَنْ صودف أنه مغنٍّ موهوب. لقد وقع في عادة تعريف نفسه على أنه "باريتون barytone"، وهي مهارة حققها بنفسه، وبالتالي، لم تعد مهمةً هويتُه الدينية أو البيئية التي نشأ فيها. كلبناني، صارت مواهبه كـ"باريتون" أكثر إثارة للتقدير من كونه تابعاً لحزب أو طائفة ما. تخيّلوا كم كنا أكثر إثارة وحيوية لو كانت هوياتنا وشعورنا بقيمة الذات نتيجة معايير الإنجاز بدلاً من المعايير الطائفية.

الإبحار وروح المغامرة venturism

إعتمد شبلي خياراً أكثر مغامرةً لاكتشاف هويته، ملؤه التحدّي. متى كُنتَ مغامراً وقادراً على العيش في بيئة متعددة الحضارات، عليك أن تكتسب المهارات اللازمة لذلك، وتحديداً اللغة. بالإضافة إلى لغاته الأساسية الثلاث، لشبلي تمكنٌ بعدة لغات أخرى (الإسبانية والألمانية والإيطالية والفارسية). هنا أيضاً كان شبلي صائباً في بذل الجهد المتواصل للتوفيق بين السمات الداخلية والخارجية في إبحاره. ونظراً للولاءات التعبدية في التزامه التراث العائلي، لم يستطع إلا اعتناق مثل هذه السمات التوفيقية. وبينما يعترف بمدى حظّه في الاستمتاع بإنتاجات عائلته الرائعة، إلا أنه في قلبه يجرؤ ويؤكّد على الإبحار في ما يتجاوز التوقعات العادية، فتراه يختبر دائماً حدود "السفر في غير طرق معبّدة". معظم كتاباته، بالنسبة لي على الأقل، هي تأكيد لهذه الثنائية.

ومن مؤلفاته كتابه عن محمّد باقر الصدر، **تجديد الفقه الإسلامي**، المنشور في دار جامعة كامبريدج الرائدة (١٩٩٣). العمل الشاق الذي استثمره شبلي في تأليف الكتاب لم يذهب سدى، وفاز بالمناسبة بجائزة البروفسور ألبرت حوراني الشهيرة. وتجدر الإشارة إلى أن تمويل هذا المشروع الذي امتد لعشر سنوات تمّ جزئياً من قبل مؤسسة الحريري. ثم انتقل البروفيسور ملاط من كاريزما الصدر إلى كتابه المستوحى من توكفيل، **ديمقراطية نهاية القرن في أميركا** (٢٠١٦)، في قفزة نوعيّة من النجف إلى التشيع العالمي، ثم إلى الديمقراطية الأميركية وإخفاقاتها.

من الواضح أن شبلي "أزهر مبكراً". فعلى الرغم من التفاوت في العمر بيننا، أنا وشبلي لدينا الكثير من القواسم المشتركة. كلانا مدفوع بأخلاقيات عمل صارمة نخطُّ الكتب ونقرأ بشغف. وعلى الرغم من عدم الترويج لها، كلانا غزير الإنتاج، وقد تمّ الاعتراف بعدد من كتبنا بجوائز مرموقة. تماماً كما يعرّف ابني نفسه بأنه "باريتون"، نحن "علماء" وشبلي يحدد علمه بالفقه القانوني. وكلانا حريص على التمييز بين "الرفاق" و"الزملاء". خلافاً للزميل يبحث الرفيق عن الذات، ويضمر مشاعر بدائية تدعمها مجموعات من الزبائن من خلال الولاء المطلق للقادة أو الزعماء، فيطغى التزامه الأيديولوجي على التخصص المهني والمصلحة الأكاديمية العليا التي تميّز الزمالة.

طوال حياته المهنية المدهشة، لم يكن شبلي أبداً ضامراً مثل تلك المشاعر أو غير أكيد من سلوكه "الطريق الذي لم يسلك بعد the road not taken"، في حكمة روبرت فروست الشعرية. في معظم التزاماته العلمية والفكرية، عمل خارج المألوف وتحدّى وطأة الحقائق العادية والتقليدية، فكان مغامراً ومبحراً، وكان سبّاقاً. من أوراقه المهنية المنشورة مقارنةٌ بين القانون الفرنسي والإنجليزي في القرن الثامن عشر، كتبها عندما كان عمره ٢٣ عاماً، ونشرت المقالة في أكثر المجلّات الفرنسية ريادةً عن تاريخ القانون.

أندهش من إنتاجيته في مجلدات شاقة كمثقف عام ملتزم، فهو يفعل ما يفعله المثقفون العامون public intellectual أقلّه على ثلاثة مستويات: يتكلم **علناً، دون خوف، دفاعاً عن من عَدَاه.** إذا ألقيت نظرة خاطفة الى إنتاجه الغزير – العلمي والعام على حد سواء – يمكنك تجميع النماذج لكل

منها بسهولة. في إحدى كتاباته الأخيرة، يتحدث عن "الحاجة إلى مساعدة المحتاج". سهولة التعبير لديه بلغات متعددة هي الأكثر إثارة للإعجاب. فكّروا فقط في الانطباع الذي يتركه في العالم متى تحدث باسم لبنان.

القوة الناعمة

إن التفاني في الولاء للأسرة واللهفة التي كانت لدى شبلي في تقرّبه من أجداده ومن أبيه وأعمامه ما دفعه الى التماس الثروة العائلية وتراث ضيعته بعبدا. بنفس القدر من القوة كان لهف شبلي الى ما خارج العائلة ومسقط الرأس.

عندما ظهر كتاب جوزيف ناي Nye الرائع عن "القوة الناعمة" سنة ٢٠٠٤، كان شبلي على الأرجح غارقاً في التزامات البحث والمحاماة، فَلَمْ يمنح الكتاب القراءة المتأنية التي يستحقها. لكنه كان مدركاً للحجة الأساسية التي استكشفها ناي. فالعديد من القضايا التي بحثها وكتب عنها وناضل في ظلّها – اللاعنف والمواطنة وحقوق الإنسان والقانون – تمّ تحليله لها بحدس كبير وخيال عميق. على سبيل المثال، تتميّز "الحملة الانتخابية الرئاسية" التي أطلقها شبلي في عام ٢٠٠٦ بروح "المغامرة" و"القوة الناعمة" على السواء. وقد يغفر المرء شبلي إلهامَ حملته الانتخابية باعتماد "الأوراق الفيدرالية" التي قام عليها الدستور الأميركي في العام ١٧٨٧. لكن هذا المشروع الجريء جديرٌ بالإحترام، لا سيما أن شبلي تجنّب في صولاته الخطابية المناظرات العاصفة الساعية لجذب الاهتمام، والتي يستخدمها أشخاص

آخرون يعملون بالشأن العام في ديماغوجية شرسة ورفع أصابع الاتهام باستمرار. شبلي ملاّط لا يحقّر ولا يُزْبد ولا يفقد رصانته وهدوءه في وقتٍ باتت وسائل التواصل الاجتماعي تحوي شتى مشاهد الهزء والتعدي، والقصد جرّ الناس الى المغالاة والتعويض عن اشمئزازها وغضبها المكبوت.

وبطبيعة الحال، يعارض شبلي مثل هذه الوسائل الشاذة. إذا انتخب رئيساً، لا شك أنه مقبل على الإعتماد على استراتيجيات "القوة الناعمة" لكبح العنوان الفرعي في الشأن العام لصالح المستويات الأرفع في مساحات عيشنا المشترك.

نظراً لخيبة أملي المزمنة في الطريقة التي تُنتهك بها جمهوريتُنا المحاصرة بلا رحمة، كنت قد اتخذت منذ حين قراراً بالامتناع عن الكتابة عن أيّة معركة انتخابية يرعاها نظامنا السياسي المعطّل. إنما جدّية ترشيح شبلي ملاط في الانتخابات الرئاسية دفعتني إلى تعليق هذا القرار. وقد أصبح هذا الاحتمال الواعد عندي مصدراً للأمل الذي تشتدّ الحاجة للاطمئنان إليه، وليس فقط نزوةً خفيّة وطوباوية. الاحتمالات تحتاج ألّا تظلَّ احتمالات.

هو أمر مشجعٌ في مثل هذه الفواصل المظلمة من تاريخنا السائب أن يصبح مرشَّح بمؤهلاته غير العادية احتمالاً حقيقياً للرئاسة المعطّلة. طوال حياته المهنية المميزة، كان شبلي متفوقاً، بل مباركاً بمجموعة من السمات الجذابة الداعمة لمساره، وهي سمات تنفر منها ثقافتنا التقليديّة. عذراً على لغة

المغالاة المفرطة، عادة ما أتجنب مثل هذه المبالغات، لكنني متأثر بإمكانية ملموسة في رؤية رئيسِنا القادم صديقاً مقرّباً وزميلاً يتمتع بمثل هذه المؤهلات الاستثنائية.

بصفتي عالم اجتماع ومؤرخ اجتماعي، كرّست وقتاً طويلاً لاستكشاف بعض الخصال المميزة للعائلة اللبنانية وتفسيرها. أريدني صريحاً وواضحاً: آل الملاط حقاً استثنائيون.

بعد استعراضي السريع لنتاجهم وانجازات العائلة، من الواضح بأي معايير مقارنة أنها بعيدة عن المألوف. تستحقّ الأجيال الثلاثة من آل الملّاط أن يُنظر اليها برهبة وفخر: تامر (١٨٥٦-١٩١٤) ، شاعر وفيلسوف وقاضٍ. شبلي (١٨٧٥-١٩٦١)، شاعر وطني وعربي مشهور. وجدي (١٩١٩-٢٠١٠)، أديب، ونقيب المحامين، ووزير، وأول رئيس لمجلسنا الدستوري.

نظراً للظروف التي أكتب فيها المقال، لا بد أن أكون موجزاً. أعتزم التركيز على ثلاثة اعتبارات تمّ تجاهلها حتى الآن: التوضيح كيف يمكن لعائلة واسعة الباع والابداع أن تساعدنا على فهم شخصية شبلي الحفيد ودوافع ترشيحه إلى منصب الرئاسة. ثانياً، أبذل جهداً لكشف حسّ التجديد كما سمات أخرى دفعته إلى تجاوز المألوف لفهم ما أسميه "روح المغامرة أو الإبحار venturism" ، إدراكُها سهل في كتابات شبلي الاستثنائية حول **تجديد الفقه الإسلامي** (كامبريدج ١٩٩٣، دار النهار ١٩٩٨)، و**فلسفة اللاعنف** (أكسفورد ٢٠١٥) ، و**ديمقراطية نهاية القرن في أمريكا** (دار البدائع، ٢٠١٦).

وأختم باقتراح السبل التي تسمح بتناول عمل شبلي في سياق "القوة الناعمة soft power" ، بما تتناقض القوة الناعمة مع جميع أشكال العسكرة والعنف المتفشية في تاريخ لبناننا القريب.

وبما أنني أخاطب مجموعة واعية من أعضاء المجلس المنتخبين الـ ١٢٨، آمل أن يلقى ندائي هذا آذاناً صاغية. السمات الثلاث المميزة التي أرغب الإضاءة عليها تعكس جوهراً لا يمكنهم تخطّيه.

آل ملّاط العائلة موهوبة

يشكّل أفراد آل الملّاط، نظراً لتنوع وكثافة إبداعهم، دائماً مصدراً للإلهام والتقليد، وقد غرف شبلي بحرّية من ينبوعهم الوافر. ونشأ على تقليد عائلي نبيل آخر: تعاونٌ أدبيٌّ جَعَلَ الأشقاء مؤلِّفين مشترِكِين، وحوارٌ عابرٌ للأجيال. المنحة المشتركة، التي تنطوي في بعض الأحيان على العمل الشاق والمساعدة البحثية، تأتي عندهم بشكل طبيعي. إذا صادفْتَ منشوراً من منشورات آل الملّاط، ما عليك سوى الاطلاع على المقدمة لتجد إشارة إلى أشقاء آخرين وأفراد من العائلة شاركوا في الكتاب.

كان شبلي محظوظاً، بل محظياً، بأن يكون جزءاً من هذا الإرث الاستثنائي. منشورات آل الملّاط مليئة بالاحترام المتبادل والإعجاب. من الأمثلة ما يتبادر إلى الذهن من طلب والد شبلي المساعدة في جمع وتحرير وإعداد مجموعة من المقالات والأبحاث في مجلد (**مواقف**، دار النهار، ٢٠٠٥). كان المشروع شاقاً واستغرق وقتاً طويلاً، فاستخدم مساعدة شبلي، الأبرز أكاديمياً في الأسرة، بحكمة وإبداع. في مثال

آخر، تطوَّع وجدي، المحامي النشيط والواسع الأدب، لجمع وتحرير أعمال والده. وكرّر وجدي هذا العمل الفذ من خلال جمع وتحرير مجلّد شعر عمه تامر مع ابنه شبلي. هذا المشروع المشترك الناجح بين الأشقاء وعبر الأجيال نادر ومعبّر.

لدى بيت الملّاط أيضاً اهتمام شديد ومستنير بنوعية تعليم أولادهم. كان لشبلي بداية مبكرة، وربما مبكرة جداً مقارنة مع أترابه. نشأ في بيئة علمانية وغير تقليدية، مع احترام حماسي وولع خاص تجاه معلمين ومرشدين موهوبين وبارعين في عائلة واسعة القدرات والتنوع. يحقّ لثلاثة أو أربعة أجيال من آل الملاط أن يتباهوا بوجود عدد كبير من الكتّاب والفلاسفة والفقهاء، وحتى الفنانين من بينهم. هذه ليست ميزة اعتيادية، وقد حظي شبلي بالغرف من تنوع الولاءات الأساسية والمشارب الثقافية فيها.

أذكر هنا مناسبة وثيقة الصلة بالموضوع. لدي في العائلة الأقرب مَنْ صودف أنه مغنٍّ موهوب. لقد وقع في عادة تعريف نفسه على أنه "باريتون barytone"، وهي مهارة حققها بنفسه، وبالتالي، لم تعد مهمةً هويتُه الدينية أو البيئية التي نشأ فيها. كلبناني، صارت مواهبه كـ"باريتون" أكثر إثارة للتقدير من كونه تابعاً لحزب أو طائفة ما. تخيّلوا كم كنا أكثر إثارة وحيوية لو كانت هوياتنا وشعورنا بقيمة الذات نتيجة معايير الإنجاز بدلاً من المعايير الطائفية.

الإبحار وروح المغامرة venturism

إعتمد شبلي خياراً أكثر مغامرةً لاكتشاف هويته، ملؤه التحدّي. متى كُنتَ مغامراً وقادراً على العيش في بيئة متعددة الحضارات، عليك أن تكتسب المهارات اللازمة لذلك، وتحديداً اللغة. بالإضافة إلى لغاته الأساسية الثلاث، لشبلي تمكنٌ بعدة لغات أخرى (الإسبانية والألمانية والإيطالية والفارسية). هنا أيضاً كان شبلي صائباً في بذل الجهد المتواصل للتوفيق بين السمات الداخلية والخارجية في إبحاره. ونظراً للولاءات التعبدية في التزامه التراث العائلي، لم يستطع إلا اعتناق مثل هذه السمات التوفيقية. وبينما يعترف بمدى حظّه في الاستمتاع بإنتاجات عائلته الرائعة، إلا أنه في قلبه يجرؤ ويؤكّد على الإبحار في ما يتجاوز التوقعات العادية، فتراه يختبر دائماً حدود "السفر في غير طرق معبّدة". معظم كتاباته، بالنسبة لي على الأقل، هي تأكيد لهذه الثنائية.

ومن مؤلفاته كتابه عن محمّد باقر الصدر، **تجديد الفقه الإسلامي**، المنشور في دار جامعة كامبريدج الرائدة (١٩٩٣). العمل الشاق الذي استثمره شبلي في تأليف الكتاب لم يذهب سدى، وفاز بالمناسبة بجائزة البروفسور ألبرت حوراني الشهيرة. وتجدر الإشارة إلى أن تمويل هذا المشروع الذي امتد لعشر سنوات تمّ جزئياً من قبل مؤسسة الحريري. ثم انتقل البروفيسور ملاط من كاريزما الصدر إلى كتابه المستوحى من توكفيل، **ديمقراطية نهاية القرن في أميركا** (٢٠١٦)، في قفزة نوعيّة من النجف إلى التشيع العالمي، ثم إلى الديمقراطية الأميركية وإخفاقاتها.

من الواضح أن شبلي "أزهر مبكراً". فعلى الرغم من التفاوت في العمر بيننا، أنا وشبلي لدينا الكثير من القواسم المشتركة. كلانا مدفوع بأخلاقيات عمل صارمة نخطُّ الكتب ونقرأ بشغف. وعلى الرغم من عدم الترويج لها، كلانا غزير الإنتاج، وقد تمّ الاعتراف بعدد من كتبنا بجوائز مرموقة. تماماً كما يعرّف ابني نفسه بأنه "باريتون"، نحن "علماء" وشبلي يحدد علمه بالفقه القانوني. وكلانا حريص على التمييز بين "الرفاق" و"الزملاء". خلافاً للزميل يبحث الرفيق عن الذات، ويضمر مشاعر بدائية تدعمها مجموعات من الزبائن من خلال الولاء المطلق للقادة أو الزعماء، فيطغى التزامه الأيديولوجي على التخصص المهني والمصلحة الأكاديمية العليا التي تميّز الزمالة.

طوال حياته المهنية المدهشة، لم يكن شبلي أبداً ضامراً مثل تلك المشاعر أو غير أكيد من سلوكه "الطريق الذي لم يسلك بعد the road not taken"، في حكمة روبرت فروست الشعرية. في معظم التزاماته العلمية والفكرية، عمل خارج المألوف وتحدّى وطأة الحقائق العادية والتقليدية، فكان مغامراً ومبحراً، وكان سبّاقاً. من أوراقه المهنية المنشورة مقارنةٌ بين القانون الفرنسي والإنجليزي في القرن الثامن عشر، كتبها عندما كان عمره ٢٣ عاماً، ونشرت المقالة في أكثر المجلّات الفرنسية ريادةً عن تاريخ القانون.

أندهش من إنتاجيته في مجلدات شاقة كمثقف عام ملتزم، فهو يفعل ما يفعله المثقفون العامون public intellectual أقلّه على ثلاثة مستويات: يتكلم **علناً، دون خوف، دفاعاً عن من عَدَاه.** إذا ألقيت نظرة خاطفة الى إنتاجه الغزير – العلمي والعام على حد سواء – يمكنك تجميع النماذج لكل

منها بسهولة. في إحدى كتاباته الأخيرة، يتحدث عن "الحاجة إلى مساعدة المحتاج". سهولة التعبير لديه بلغات متعددة هي الأكثر إثارة للإعجاب. فكّروا فقط في الانطباع الذي يتركه في العالم متى تحدث باسم لبنان.

القوة الناعمة

إن التفاني في الولاء للأسرة واللهفة التي كانت لدى شبلي في تقرّبه من أجداده ومن أبيه وأعمامه ما دفعه الى التماس الثروة العائلية وتراث ضيعته بعبدا. بنفس القدر من القوة كان لهف شبلي الى ما خارج العائلة ومسقط الرأس.

عندما ظهر كتاب جوزيف ناي Nye الرائع عن "القوة الناعمة" سنة ٢٠٠٤، كان شبلي على الأرجح غارقاً في التزامات البحث والمحاماة، فَلَمْ يمنح الكتاب القراءة المتأنية التي يستحقها. لكنه كان مدركاً للحجة الأساسية التي استكشفها ناي. فالعديد من القضايا التي بحثها وكتب عنها وناضل في ظلّها – اللاعنف والمواطنة وحقوق الإنسان والقانون – تمّ تحليله لها بحدس كبير وخيال عميق. على سبيل المثال، تتميّز "الحملة الانتخابية الرئاسية" التي أطلقها شبلي في عام ٢٠٠٦ بروح "المغامرة" و"القوة الناعمة" على السواء. وقد يغفر المرء شبلي إلهامَ حملته الانتخابية باعتماد "الأوراق الفيدرالية" التي قام عليها الدستور الأميركي في العام ١٧٨٧. لكن هذا المشروع الجريء جديرٌ بالإحترام، لا سيما أن شبلي تجنّب في صولاته الخطابية المناظرات العاصفة الساعية لجذب الاهتمام، والتي يستخدمها أشخاص

آخرون يعملون بالشأن العام في ديماغوجية شرسة ورفع أصابع الاتهام باستمرار. شبلي ملاّط لا يحقّر ولا يُزْبد ولا يفقد رصانته وهدوءه في وقتٍ باتت وسائل التواصل الاجتماعي تحوي شتى مشاهد الهزء والتعدي، والقصد جرّ الناس الى المغالاة والتعويض عن اشمئزازها وغضبها المكبوت.

وبطبيعة الحال، يعارض شبلي مثل هذه الوسائل الشاذة. إذا انتخب رئيساً، لا شك أنه مقبل على الإعتماد على استراتيجيات "القوة الناعمة" لكبح العنوان الفرعي في الشأن العام لصالح المستويات الأرفع في مساحات عيشنا المشترك.

نظراً لخيبة أملي المزمنة في الطريقة التي تُنتهك بها جمهوريتُنا المحاصرة بلا رحمة، كنت قد اتخذت منذ حين قراراً بالامتناع عن الكتابة عن أيّة معركة انتخابية يرعاها نظامنا السياسي المعطّل. إنما جدّية ترشيح شبلي ملاط في الانتخابات الرئاسية دفعتني إلى تعليق هذا القرار. وقد أصبح هذا الاحتمال الواعد عندي مصدراً للأمل الذي تشتدّ الحاجة للاطمئنان إليه، وليس فقط نزوةً خفيّة وطوباوية. الاحتمالات تحتاج ألّا تظلَّ احتمالات.

هو أمر مشجعٌ في مثل هذه الفواصل المظلمة من تاريخنا السائب أن يصبح مرشَّح بمؤهلاته غير العادية احتمالاً حقيقياً للرئاسة المعطّلة. طوال حياته المهنية المميزة، كان شبلي متفوقاً، بل مباركاً بمجموعة من السمات الجذابة الداعمة لمساره، وهي سمات تنفر منها ثقافتنا التقليديّة. عذراً على لغة المغالاة المفرطة، عادة ما أتجنب مثل هذه المبالغات، لكنني متأثر بإمكانية ملموسة في رؤية رئيسِنا القادم صديقاً مقرّباً وزميلاً يتمتع بمثل هذه المؤهلات الاستثنائية.

بصفتي عالم اجتماع ومؤرخ اجتماعي، كرّست وقتاً طويلاً لاستكشاف بعض الخصال المميزة للعائلة اللبنانية وتفسيرها. أريدني صريحاً وواضحاً: آل الملاط حقاً استثنائيون.

بعد استعراضي السريع لنتاجهم وانجازات العائلة، من الواضح بأي معايير مقارنة أنها بعيدة عن المألوف. تستحقّ الأجيال الثلاثة من آل الملّاط أن يُنظر اليها برهبة وفخر: تامر (١٨٥٦-١٩١٤) ، شاعر وفيلسوف وقاضٍ. شبلي (١٨٧٥-١٩٦١)، شاعر وطني وعربي مشهور. وجدي (١٩١٩-٢٠١٠)، أديب، ونقيب المحامين، ووزير، وأول رئيس لمجلسنا الدستوري.

نظراً للظروف التي أكتب فيها المقال، لا بد أن أكون موجزاً. أعتزم التركيز على ثلاثة اعتبارات تمّ تجاهلها حتى الآن: التوضيح كيف يمكن لعائلة واسعة الباع والابداع أن تساعدنا على فهم شخصية شبلي الحفيد ودوافع ترشيحه إلى منصب الرئاسة. ثانياً، أبذل جهداً لكشف حسّ التجديد كما سمات أخرى دفعته إلى تجاوز المألوف لفهم ما أسميه "روح المغامرة أو الإبحار venturism" ، إدراكُها سهل في كتابات شبلي الاستثنائية حول تجديد الفقه الإسلامي (كامبريدج ١٩٩٣، دار النهار ١٩٩٨)، وفلسفة اللاعنف (أكسفورد ٢٠١٥) ، وديمقراطية نهاية القرن في أمريكا (دار البدائع، ٢٠١٦). وأختم باقتراح السبل التي تسمح بتناول عمل شبلي في سياق "القوة الناعمة soft power" ، بما تتناقض القوة الناعمة مع جميع أشكال العسكرة والعنف المتفشية في تاريخ لبناننا القريب.

وبما أنني أخاطب مجموعة واعية من أعضاء المجلس المنتخبين الـ ١٢٨، آمل أن يلقى ندائي هذا آذاناً صاغية. السمات الثلاث المميزة التي أرغب الإضاءة عليها تعكس جوهراً لا يمكنهم تخطّيه.

آل ملّاط العائلة موهوبة

يشكّل أفراد آل الملّاط، نظراً لتنوع وكثافة إبداعهم، دائماً مصدراً للإلهام والتقليد، وقد غرف شبلي بحرّية من ينبوعهم الوافر. ونشأ على تقليد عائلي نبيل آخر: تعاونٌ أدبيٌّ جَعَلَ الأشقاء مؤلِّفين مشترِكِين،

وحوارٌ عابرٌ للأجيال. المنحة المشتركة، التي تنطوي في بعض الأحيان على العمل الشاق والمساعدة البحثية، تأتي عندهم بشكل طبيعي. إذا صادفْتَ منشوراً من منشورات آل الملّاط، ما عليك سوى الاطلاع على المقدمة لتجد إشارة إلى أشقاء آخرين وأفراد من العائلة شاركوا في الكتاب.

كان شبلي محظوظاً، بل محظياً، بأن يكون جزءاً من هذا الإرث الاستثنائي. منشورات آل الملّاط مليئة بالاحترام المتبادل والإعجاب. من الأمثلة ما يتبادر إلى الذهن من طلب والد شبلي المساعدة في جمع وتحرير وإعداد مجموعة من المقالات والأبحاث في مجلد (مواقف، دار النهار، ٢٠٠٥). كان المشروع شاقاً واستغرق وقتاً طويلاً، فاستخدم مساعدة شبلي، الأبرز أكاديمياً في الأسرة، بحكمة وإبداع. في مثال آخر، تطوَّع وجدي، المحامي النشيط والواسع الأدب، لجمع وتحرير أعمال والده. وكرّر وجدي هذا العمل الفذ من خلال جمع وتحرير مجلّد شعر عمه تامر مع ابنه شبلي. هذا المشروع المشترك الناجح بين الأشقاء وعبر الأجيال نادر ومعبّر.

لدى بيت الملّاط أيضاً اهتمام شديد ومستنير بنوعية تعليم أولادهم. كان لشبلي بداية مبكرة، وربما مبكرة جداً مقارنة مع أترابه. نشأ في بيئة علمانية وغير تقليدية، مع احترام حماسي وولع خاص تجاه معلمين ومرشدين موهوبين وبارعين في عائلة واسعة القدرات والتنوع. يحقّ لثلاثة أو أربعة أجيال من آل الملاط أن يتباهوا بوجود عدد كبير من الكتّاب والفلاسفة والفقهاء، وحتى الفنانين من بينهم. هذه ليست ميزة اعتيادية، وقد حظي شبلي بالغرف من تنوع الولاءات الأساسية والمشارب الثقافية فيها.

أذكر هنا مناسبة وثيقة الصلة بالموضوع. لدي في العائلة الأقرب مَنْ صودف أنه مغنٍّ موهوب. لقد وقع في عادة تعريف نفسه على أنه "باريتون barytone"، وهي مهارة حققها بنفسه، وبالتالي، لم تعد مهمةً هويتُه الدينية أو البيئية التي نشأ فيها. كلبناني، صارت مواهبه كـ"باريتون" أكثر إثارة للتقدير من كونه تابعاً لحزب أو طائفة ما. تخيّلوا كم كنا أكثر إثارة وحيوية لو كانت هوياتنا وشعورنا بقيمة الذات نتيجة معايير الإنجاز بدلاً من المعايير الطائفية.

الإبحار وروح المغامرة venturism

إعتمد شبلي خياراً أكثر مغامرةً لاكتشاف هويته، ملؤه التحدّي. متى كُنتَ مغامراً وقادراً على العيش في بيئة متعددة الحضارات، عليك أن تكتسب المهارات اللازمة لذلك، وتحديداً اللغة. بالإضافة إلى لغاته الأساسية الثلاث، لشبلي تمكنٌ بعدة لغات أخرى (الإسبانية والألمانية والإيطالية والفارسية). هنا أيضاً كان شبلي صائباً في بذل الجهد المتواصل للتوفيق بين السمات الداخلية والخارجية في إبحاره. ونظراً للولاءات التعبدية في التزامه التراث العائلي، لم يستطع إلا اعتناق مثل هذه السمات التوفيقية. وبينما يعترف بمدى حظّه في الاستمتاع بإنتاجات عائلته الرائعة، إلا أنه في قلبه يجرؤ ويؤكّد على الإبحار في ما يتجاوز التوقعات العادية، فتراه يختبر دائماً حدود "السفر في غير طرق معبّدة". معظم كتاباته، بالنسبة لي على الأقل، هي تأكيد لهذه الثنائية.

ومن مؤلفاته كتابه عن محمّد باقر الصدر، تجديد الفقه الإسلامي، المنشور في دار جامعة كامبريدج الرائدة (١٩٩٣). العمل الشاق الذي استثمره شبلي في تأليف الكتاب لم يذهب سدى، وفاز بالمناسبة بجائزة البروفسور ألبرت حوراني الشهيرة. وتجدر الإشارة إلى أن تمويل هذا المشروع الذي امتد لعشر سنوات تمّ جزئياً من قبل مؤسسة الحريري. ثم انتقل البروفيسور ملاط من كاريزما الصدر إلى كتابه المستوحى من توكفيل، ديمقراطية نهاية القرن في أميركا (٢٠١٦)، في قفزة نوعيّة من النجف إلى التشيع العالمي، ثم إلى الديمقراطية الأميركية وإخفاقاتها.

من الواضح أن شبلي "أزهر مبكراً". فعلى الرغم من التفاوت في العمر بيننا، أنا وشبلي لدينا الكثير من القواسم المشتركة. كلانا مدفوع بأخلاقيات عمل صارمة نخطُّ الكتب ونقرأ بشغف. وعلى الرغم من عدم الترويج لها، كلانا غزير الإنتاج، وقد تمّ الاعتراف بعدد من كتبنا بجوائز مرموقة. تماماً كما يعرّف ابني نفسه بأنه "باريتون"، نحن "علماء" وشبلي يحدد علمه بالفقه القانوني. وكلانا حريص على التمييز بين "الرفاق" و"الزملاء". خلافاً للزميل يبحث الرفيق عن الذات، ويضمر مشاعر بدائية تدعمها مجموعات من الزبائن من خلال الولاء المطلق للقادة أو الزعماء، فيطغى التزامه الأيديولوجي على التخصص المهني والمصلحة الأكاديمية العليا التي تميّز الزمالة.

طوال حياته المهنية المدهشة، لم يكن شبلي أبداً ضامراً مثل تلك المشاعر أو غير أكيد من سلوكه "الطريق الذي لم يسلك بعد the road not taken"، في حكمة روبرت فروست الشعرية. في معظم التزاماته العلمية والفكرية، عمل خارج المألوف وتحدّى وطأة الحقائق العادية والتقليدية، فكان مغامراً ومبحراً، وكان سبّاقاً. من أوراقه المهنية المنشورة مقارنةٌ بين القانون الفرنسي والإنجليزي في القرن الثامن عشر، كتبها عندما كان عمره ٢٣ عاماً، ونشرت المقالة في أكثر المجلّات الفرنسية ريادةً عن تاريخ القانون.

أندهش من إنتاجيته في مجلدات شاقة كمثقف عام ملتزم، فهو يفعل ما يفعله المثقفون العامون public intellectual أقلّه على ثلاثة مستويات: يتكلم علناً، دون خوف، دفاعاً عن من عَدَاه. إذا ألقيت نظرة خاطفة الى إنتاجه الغزير — العلمي والعام على حد سواء – يمكنك تجميع النماذج لكل منها بسهولة. في إحدى كتاباته الأخيرة، يتحدث عن "الحاجة إلى مساعدة المحتاج". سهولة التعبير لديه بلغات متعددة هي الأكثر إثارة للإعجاب. فكّروا فقط في الانطباع الذي يتركه في العالم متى تحدث باسم لبنان.

القوة الناعمة

إن التفاني في الولاء للأسرة واللهفة التي كانت لدى شبلي في تقرّبه من أجداده ومن أبيه وأعمامه ما دفعه الى التماس الثروة العائلية وتراث ضيعته بعبدا. بنفس القدر من القوة كان لهف شبلي الى ما خارج العائلة ومسقط الرأس.

عندما ظهر كتاب جوزيف ناي Nye الرائع عن "القوة الناعمة" سنة ٢٠٠٤، كان شبلي على الأرجح غارقاً في التزامات البحث والمحاماة، فَلَمْ يمنح الكتاب القراءة المتأنية التي يستحقها. لكنه كان مدركاً للحجة الأساسية التي استكشفها ناي. فالعديد من القضايا التي بحثها وكتب عنها وناضل في ظلّها – اللاعنف والمواطنة وحقوق الإنسان والقانون – تمّ تحليله لها بحدس كبير وخيال عميق. على سبيل المثال، تتميّز "الحملة الانتخابية الرئاسية" التي أطلقها شبلي في عام ٢٠٠٦ بروح "المغامرة" و"القوة الناعمة" على السواء. وقد يغفر المرء شبلي إلهامَ حملته الانتخابية باعتماد "الأوراق الفيدرالية" التي قام عليها الدستور الأميركي في العام ١٧٨٧. لكن هذا المشروع الجريء جديرٌ بالإحترام، لا سيما أن شبلي تجنّب

في صولاته الخطابية المناظرات العاصفة الساعية لجذب الاهتمام، والتي يستخدمها أشخاص آخرون يعملون بالشأن العام في ديماغوجية شرسة ورفع أصابع الاتهام باستمرار. شبلي ملاّط لا يحقّر ولا يُزْبد ولا يفقد رصانته وهدوءه في وقتٍ باتت وسائل التواصل الاجتماعي تحوي شتى مشاهد الهزء والتعدي، والقصد جرّ الناس الى المغالاة والتعويض عن اشمئزازها وغضبها المكبوت.

وبطبيعة الحال، يعارض شبلي مثل هذه الوسائل الشاذة. إذا انتخب رئيساً، لا شك أنه مقبل على الإعتماد على استراتيجيات "القوة الناعمة" لكبح العنوان الفرعي في الشأن العام لصالح المستويات الأرفع في مساحات عيشنا المشترك.